رحمك الله أيها الشهيد الفذ، والحقك بمن تحب في جنة عرضها السموات والأرض مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، وألهم أهلك وتلامذتك حسن الصبر وجميل الفعل والقول، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

عبد الله عزام نموذج العلماء المجاهدين(١)

لم يكن اغتيال الأخ الحبيب الشيخ الداعية عبد الله عزام، نموذج العالم المجاهد مفاجأة كبيرة لي، ذلك اني أعلم شدة نقمة أعداء الإسلام على علمائه المخلصين الذين يشهدون بالحق ويدافعون عن الأمة ويقودون الناس في الكفاح ضد الظلم والاستعمار. إنها نقمة طارفة وتليدة، نجدها في تاريخ الإسلام القديم وفي تاريخه الحديث، وتلك هي قصة بديع الزمان النورسي (تركيا) وحسن وسيد قطب وعبد الله عزام من جهة، وقصة أحمد الشهيد (الهند) وأحمد بيلو والملك فيصل من جهة أخرى، أعني معادلة الحضارة حين يلتقي العلماء والحكام معاً في صف الأمة.

قد يكون أول لقاء لي مع الداعية العالم الفلسطيني عبد الله عزام على أرض الأردن خلال زيارتي لها سنة ١٩٧٨ ولكن العلاقة الخاصة، علاقة التعارف والتحابب الراسخ كانت محطة انطلاقتها الرئيسية في بيروجيا بايطاليا لآخر يومين من سنة١٩٧٩ وفي ليلة رأس السنة بالذات حيث سهرنا على هامش ملتقى طلابي إسلامي لإتحاد الطلبة المسلمين بايطاليا، كان منعقدا بالمدينة المذكورة كلانا مدعو إليه . كنا نشاهد بأسى شديد من شرفة البناية التي نزلنا بها ما يمكن أن يتردى فيه الإنسان من دركات الانحلال عندما ينزع يده من الله تبارك وتعالى، وكانت مشاهد الانحطاط الناطقة بضياع العقل والخلق والدين تزيدنا استشعاراً بنعمة الله علينا بالإسلام، واشفاقا على هذه البشرية المعذبة الهاربة من الله تعالى... وتزيدنا حرصاً على تنمية الجهود لانقاذ شباب أمتنا خاصة من هذا الأتون طريقاً لانقاذ الأمة والعالم.

وكان بعد ذلك ما كان من أمر أفغانستان حين غزاها الروس وتداعى المسلمون يحثون ويحشدون أسباب النصرة للبلد الشقيق.

وكنت من الداعين بحماس لوجود الأخ عبد الله عزام ممثلاً للعرب مجمعاً لطاقاتهم على أرض الجهاد في أفغاسنتان بسبب ما استقر في نفسي عنه كأنسب رجال الدعوة الإسلامية في النهوض بهذه المهمة ... فهو العالم... وهو الداعية... وهو القائد المجرب... وهو الاديب صاحب الوجدان الرقيق والحماس الفياض... وهو الشاب القوي الذي يصدق فيه بحق صفات من طالوت «إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم» ولم يكبكب الرجل وكان عند حسن الظن به وأكثر.

التقيت بالشيخ الحبيب وكلي شوق إلى لقياه في أمريكا خلال انعقاد مؤتمر الشباب العربي المسلم في أوكلاهوماسيتي في ديسمبر ١٩٨٨، ثم بعدها في الكويت خلال انعقاد المؤتمر الثالث للجمعية الخيرية العالمية أواخر شهر اكتوبر، ربيع الأول بعد أن تعذر اللقاء خلال زيارتي لبيشاور ولأرض الجهاد في أفغانستان وقد ألفيت هناك مآثره العطرة وأخباره على كل لسان، لقد كان يومئذ في جولة داخل جبهات القتال مع أخيه القائد المجاهد قلب الدين حكمتيار وكنت شاهداً في المجلس الذي انعقد بمقر الحكومة المؤقتة في بيشاور تحت اشراف الأخ المجاهد عبد رب الرسول سياف رئيس الحكومة، اجتماع المصالحة بين الجمعية والحزب بحضور عدد من زعماء العالم الإسلامي وانتهى التعاتب بين القائدين المتنازعين إلى الاتفاق على التحكيم بعرض قضية التنازع على المحكمة، فتم تكوينها من العلماء الأفغان المرضي عنهم من الطرفين، ولم يختلف أحد من الحاضرين عرباً وأفغاناً على تعيين الشيخ عبد الله عزام، رغم أنه لم يكن حاضراً، عضواً بارزاً في تلك المحكمة وأحسبه العضو الوحيد من غير الأفغان . لقد كان اسم الشيخ عبد الله عزام على كل لسان... وكان ذكر الرجل أحياناً لا يخلو من تسجيل عتاب ونقد صريح أحياناً ومتضخم أحيانا أخرى...

لقد أصبح نموذجاً على كل واجهة من واجهات الجهاد فهو قائد على الصعيد الاعلامي والصحفي يصدر مجلة للجهاد وهو الخطيب الامام في مسجده وحيثما حل فهو الامام الخطيب والمحاضر المتخصص في التحريض على الجهاد. وهو على صعيد التنظيم لصفوف الشباب العربي واعدادها للجهاد وتدريبها في الطليعة، وهو على صعيد التجنيد المالي في البلاد العربية من أجل الخدمات الاستشفائية والتعليمية لا أحد يتقدم عليه.. وهو على الصعيد الميداني لا تكاد جبهة من جبهات الجهاد لم يتشرف بشهود ملحمة من

(١) الشرق الأوسط ٢٠/[illegible] – بقلم راشد الغنوشي.

ملاحمها وهو على صعيد التأليف بين قلوب القادة غير مزاحم حتى لتضطرب الانظار المتابعة لمساره إذ تحسبه مرة مع الجمعية لكثرة اشادته بمسعود، وتخاله مرة أخرى مع الحزب لامعانه في الثناء على المهندس حكمتيار، رغم أنه هو ذاته قائم على رأس جبهة الشباب العربي المجاهد.

وهذه الواجهات الكثيرة والتي قاتل عليها الرجل وعموم التوفيق التي حملها لاطفاء نار الفتن، أحسب أنها ساهمت في تنمية ممس بالنقد والمؤاخذة ضده تسرب إلى بعضه خلال لقاءاتي في بيشاور وداخل أرض الجهاد فرغبت في الافضاء اليه بما في نفسي فما تيسر لي ذلك الا يوم لقيته أواخر الشهر الماضي بالكويت يفيض وقاراً وإيمانا ومهابة مما جعله محاط الليل والنهار بأفواج متلاحقة من الشباب المعجب بجهاده المتطلع إلى الجلوس إليه وسماع أحاديثه ونصحه . ورغم ذلك فقد يسر الله لي فرصاً كثيرة التحدث معه في ردهات الفندق أو على مائدة الطعام لمصارحته بما في نفسي من عتب وانتقاد، فانصت في ابتسام واطمئنان وحب يفيض على من حوله، ورغم شدتي المغاربية عليه، فما لحظت منه بادرة غضب أو انفعال ولا ارتفع له صوت.

لقد أخذته على إفراطه في الميل إلى بعض القادة وأخذته على انفراد الشباب العربي بجبهة، وقد كان أولى أن يتوزعوا فيسهموا في نقل لغة القرآن الكريم وما حملته من ثقافة إسلامية متجددة إلى إخوانهم الأفغان إضافة إلى مؤاخذات أخرى اجابني عنها بنفس الاطمئنان والوقار والمحبة الفياضة فازددت له محبة وبه إعجابا. لقد فسر المؤاخذة الأولى بحرصه على التوحيد بين القادة ووحدة صفهم، وفسر الثانية بأن المجاهدين العرب موجودون على كل الجبهات وأن انفرادهم الجزئي قد دفعت إليه ضرورات لا قبل له بها.

لقد لمست في الرجل خلال لقائي به في الكويت ثم من بعد ذلك في لاهور خلال هذا الشهر، نفساً نقديا للحركة الإسلامية وخاصة في الوطن العربي وذلك على صعيدين متصلين.

* الأول: تقصيرها –حسب تقديره رحمه الله– في نصرة الجهاد الأفغاني بعد أن أوشك أن يكلل بتاج النصر في وقت أصبحت به الحاجة إلى مناصرة هذه القضية لا تعدلها شرعيا أية قضية أخرى إلى حد اعتبارها القضية المركزية للمسلمين دون غيرها، خاصة وقد أجمعت القوى الدولية التي كان بعضها مؤيداً للقضية الأفغانية لمجرد الانتقام من الروس، على التخلي عنها بل التآمر ضدها بمجرد الانسحاب الفوري للروس.

* الثاني: ركونها المتزايد إلى المنهج السلمي. لقد فني الرجل في الجهاد وأدبياته القتالية فما عاد يرى غير الصورة القتالية للجهاد سبيلا لنصرة الإسلام.

ومن ثم كنت اجد مشقة هائلة في تليين هذه القناعة لديه حتى تتسع نظرته إلى الجهاد فيغدو القتال ليس سوى صورة من صوره تلتجيء إليها الحركة الإسلامية في ظروف خاصة تفرض عليها فرضا، وان هناك جهاداً سلميا. المنهاج الديمقراطي في التعبير صورة من صوره هي أحب إلى الإسلام من الصورة العنيفة. وأذكر أني قد اصطدمت بالأخ الحبيب أو هو قد اصطدم بي اصطداماً شديداً خلال تعليقه على محاضرتي بأوكلا هوما سيتي بأمريكا وتأصيلي للتعددية في الإسلام... ديسمبر سنة ١٩٨٨ ولكن حتى الاختلاف في وجهات النظر لم أشعر أنه قد غير من مشاعر الأخ نحوي قيد أنملة.

وقبل أن أودعك إلى حين أيها الأخ الحبيب احتسبك لله الذي اجتباك إليه وأنت في شوق إلى لقائه راجيا من فضله الواسع أن لا يحرمنا أجرك وألا يفتنا بعدك وأن يتقبلك ووليديك الشهيدين معك في عليين، قبل ذلك لا مناص من كلمة نصح إلى قادة الدعوة الإسلامية ونحن راضون بقدر الله، أن لزومهم الحذر بالحرص على توفير الحد الأدنى الضروري من شروط التأمين وهو من قدر الله أيضاً .. ذلك أن بني صهيون وحلفاءهم الامبرياليين والشيوعيين وعملاءهم المحليين قد حولوا العالم إلى ساحة مرعبة تستحي منها الوحوش في الادغال.. ان احفاد فرعون والنمرود والصليبيين وقتلة الأنبياء لم يترددوا ان أعياهم امركم وهم يتشدقون بالحرية وحقوق الانسان ويندون بالارهاب في انتهاج طريق التصفية والاغتيال، وكذلك يفعلون.. والشيخ عزام شاهد.. «يا أيها الذين أمنوا خذوا حذركم».

والآن ونحن نودعك إلى حين أيها الأخ الحبيب لا نملك الا أن نترحم عليك مهنئين هنيئا لك الشهادة .. فلقد لقيت ربك في ساحة الجهاد.. لقد صدقت ربك فصدقك.. أما نحن إخوانك، فقد خلفت في قلوبنا حسرة ولوعة وشوقاً لا يخفف من لوعته غير ثقة لنا في الله

عظيمة أنك عنده أسعد منا في هذه الفانية وسط كيد الكفر والنفاق، وغير أمل عظيم في فضله أن نلحق بك في الفردوس الأعلى شهداء منصورين... وأن يكلأنا عدد فيه لا ينض حتى لا نهنىء بعدك ولا نحزن ولا نتخاذل ولا نتفرق، بل نسير في الطريق الذي سلكت على درب قوافل الأنبياء والشهداء...

الشهيد عزام وقافلة العطاء التي لابد أن تتجدد:

* طالما بقي صهيوني على أرض اجدادي، وطالما بقي شيوعي يتمرغ في خيرات بلادي، وطالما بقي الشر يتربع على صدر احفادي، فما قيمة الحياة مع الذل والقهر، وما قيمة الابتسامة وانا شاخص انظر لاعدائي وانا لا استطيع لهم دفعا.

ان الكلمات تعجز عن وصف الحالة المهينة التي تعيشها الأمة الإسلامية ولابد أن نتساءل: متى تتحول الكلمات إلى قذائف تبيد اعدائي وتخلص الأمة من شرهم ومتى تتحول الأحجار إلى سهام قاتلة تقتلع المؤامرة الصهيونية الصليبية من أساسها.

إن تمرس الاعداء وحرصهم على هدم الإسلام واقتلاعه من جذوره وهدم مقدساته واقامة الهيكل عليه، ونشر الالحاد في بلاد المسلمين كلها قضايا تستوجب أن ندفع لها الغالي والرخيص والنفس والنفيس في سبيلها، فالجهاد فرض عين على كل مسلم لتحرير مقدساته وحماية اعراضه.. والجهاد ليس قضية الأمس، وكفى ولكنه قضية اليوم وغدا طالما بقي عدو على أرض المسلمين، والجهاد باق إلى قيام الساعة مع بقاء الشر الذي يريد أن تكون كلمة الشيطان بشتى انواعه هي العليا، (إن للشهيد عند الله سبع خصال، أن يغفر له من أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويحلى حلة الإيمان ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار، والياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه).

فالشهيد حي عند الله، فهنيئا لك أخي في الله الدكتور عبد الله عزام الذي هزتنا كثيرا كلماته وفاضت تطرح الأزاهير من حوله، يا من قلت في اواخر افتتاحيات لك في نشرة لهيب المعركة وأنت تحكي قصة متبرع -رفض ذكر اسمه- بثلاث آلاف دينار ألف للطعام وأخرى للكساء وثالثة للجهاد وأنت تودع الرفاق والأصدقاء في الكويت: لقد أحببت هذا الجهاد -الأفغاني- بملء نفسك وإن المحبة يجب أن تكون خالصة لوجه الله ولرسوله ﷺ وبذلك برهنت على أن الخير في الأمة الإسلامية طالما بقي أمثالك في الحياة، وإذا كانت شهادتك اليوم خسارة كبيرة للجهاد سواء في أفغانستان أو فلسطين أو في أي مكان في بقاع المسلمين فإن شهادتك شهادة على التاريخ بأن قافلة الشهداء لابد أن تتجدد بشباب مسلم مؤمن مقاتل في سبيل الله ورسوله وإن قافلة الخير وقافلة الشهداء ماضية في سبيلها في سبيل الله، طريق سلكه النبي ﷺ وسلكه الصحابة جميعهم ولابد أن نسلكه جميعا لأنه لاخير في حياة ملؤها الذل والقهر من أبناء الأفاعي قتلة الأنبياء، ومن أبناء الالحاد وشرذمة الأفاقين، ولن تتحرر فلسطين أو أي ثغر من ثغور المسلمين إلا بيد أبنائها المخلصين... فهيا إلى قافلة الشهداء لتتزودوا من إيمانهم... إما النصر أو الشهادة.. كما فعل السلف الصالح.

الجانب الفلسطيني في حياة عبد الله عزام داخل أفغانستان(١)

عادت أم محمد زوجة الشيخ عبد الله عزام من تشييع جثمان زوجها واثنين من أبنائها مساء أول من أمس الجمعة من مقابر الشهداء بالقرب من بيشاور لتقول للنساء اللواتي احتشدن بمنزلها «لا يعزيني أحد، لقد زففت ثلاثة فرسان قبل قليل».

كان هذا النموذج هوالذي عمل له الشيخ عبد الله عزام وبالفعل لم يقتصر نجاح الشيخ على منزله وإنما امتد إلى اعداد هائلة من الشباب الذين نظروا إليه كمعلم وانتقل بعضهم بجواره إلى أفغانستان حتى زاد عددهم عن الآف مجاهد يعملون مقاتلين واداريين واطباء ومهندسين من أجل قضية آمنوا بها حق الإيمان.

وقبل أن ينتقل إلى بيشاور كان الشيخ عبد الله عزام قد حمل تكوينه الجهادي ما بين فلسطين والأردن حيث ولد ونشأ و درس في قطاع جنين ومن هناك سافر إلى دمشق للدراسة الجامعية . وارتبط منذ سن مبكر بحركة «الاخوان المسلمون» وعندما عاد إلى الأردن ليعمل بالتدريس اشتهر كخطيب قوي وداعيه حكيم، ويقول أحد رفقائه في الجهاد بفلسطين «كان رحمه الله واضح الرؤية موقنا

(١) جدة -مكتب «الشرق الأوسط» من جمال خاشقجي - ١٩٨٩/١١/٢٧م.

بأن الجهاد هو الطريق الوحيد للثورة إلى فلسطين، وكان من القلائل الذين يحفظون القرآن الكريم في ذلك الوقت وهم في سن مبكر وكان أبوه متديناً ومجاهداً منذ ما قبل ١٩٤٨».

بعد هزيمة ١٩٦٧ أثيرت في صف الحركة الإسلامية الفلسطينية قضية المشاركة في العمل الفدائي واختار البعض البقاء بعيداً عن المنظمات الفدائية. ولكن جناح مؤيد الجهاد انتصر وعقد الاتفاق بين «الإخوان المسلمين» و «فتح» بتخصيص معسكرات في الأردن تنفق عليها فتح وتتبعها رسمياً ولكنها خاصة بـ«الاخوان» وعرفت وقت ذاك بمعسكرات الشيوخ.

واستقال عبد الله عزام من وظيفته وتفرغ للعمل الجهادي مدرباً ومحرضاً وغارساً للعقيدة في نفوس الشباب الذين اختاروا هذه المعسكرات دون غيرها والتي ضمت بين جوانبها البقية الباقية من اسلامي الستينات من مختلف الجنسيات.

وشارك الشيخ عزام في عمليات جهادية داخل الأراضي المحتلة كانت أشهرها عملية الحزام الأخضر التي قاد فيها ٧٠ مجاهداً إلى منطقة بيسان لينفذوا واحدة من أشهر عمليات الالتحام مع جنود الاحتلال ولا تزال عملية حزام مغروسة في عمق تراث الجهاد الفلسطيني.

ويتذكر أحد الذين شاركوا في العملية فيقول: «طلب منا الشيخ قبل التوجه إلى فلسطين أن نتوضأ ونصلي ركعتين ونذكر الله ونخلص النية له ثم وقف فينا خطيباً يعرفنا لماذا نقاتل اليهود وحضنا على الإستشهاد».

وكان عبد الله عزام من الحريصين على أن تتميز الحركة الإسلامية بعملها الجهادي المستقل غير أن أحداث سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ أجلت تحقيق هذا الحلم إلى ما قبل عامين حين أعلن تكوين حركة المقاومة الإسلامية (حماس) التي قال عنها «انها نتاج عملي مضني استمر لسنوات طويلة».

وبعد أحداث سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠، عاد الشيخ عزام إلى طلب العلم من جديد فحصل على درجة الدكتوراه في أصول الفقه من جامعة الأزهر سنة ١٩٧٣، وقال له الاساتذة الذين ناقشوا رسالته «لقد مزجت في ظلال القرآن لسيد قطب بأصول الفقه الإسلامي»وبالفعل فلقد تأثر عبد الله عزام كثيراً بفكر سيد قطب حتى أنه كان يحفظ صفحات متتالية من الظلال.

وبعد حصوله على الدكتوراه عاد إلى عمان مدرساً في جامعتها وخطيباً في أحد مساجدها وفي عام ١٩٨٠ ترك الجامعة الاردنية وانتقل إلى جامعة الملك عبد العزيز بجدة. ولم يطل به المطال هناك اذ لبى داعي الجهاد الأفغاني عام١٩٨١ والتحم به حتى ازداد همه الفلسطيني الكبير بهم أخر هو أفغانستان.

وكثيراً ماسئل الشيخ عزام «ماذا تفعل في أفغانستان أيها الفلسطيني ؟» وأجابني مرة بقوله «لقد جاهدنا في فلسطين حتى وضعت القيودفي الأيادي وأصبح الذي يطلق على اسرائيل رصاصة تطلق في ظهره عشر».

ويطبع من تربى على الجهاد لم يطق الشيخ حياة المعلمين حتى وان كانت للدعوة وتنشيط العمل الإسلامي.

في أفغانستان كان الوحيد الذي يستطيع أن يتوسط بين حكمتيار وسياف أو بين سياف ورباني فالجميع عرفوه بنصرة الجهاد المجردة عن أي أهواء، وعندما تأخر النصر في أفغاستان بعد خروج السوفيات منها وانتاب القلق وداعب اليأس نفوس بعض مؤيدي الجهاد كان الشيخ عزام هو المطمئن الوحيد فلقد رأى بشائر النصر وضمها في كتابه «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» الذي طبع منه أكثر من عشر طبعات ووزع منه أكثر من ٢٥٠ ألف نسخة.وأدار الشيخ من بيشاور مكتب الخدمات الذي تلقى ملايين الريالات والدولارات من مؤيدي الجهاد المسلمين الذين وثقوا في الشيخ وحملوه مسؤولية إنفاقها في نصرة الجهاد فأرسل عشرات القوافل محملة بالسلاح والعتاد والتي وصلت حتى أقصى الشمال الأفغاني يرافقها مجاهدون عرب لا يعودون إلا ليبلغوا الشيخ أن السلاح وصل للقائد المقصود به وبنى الرجل عدة مستشفيات ومدارس وكفل عدة الآف من الأيتام.

وخير من يعبر عن حجم خسارة المجاهدين بمقتل الشيخ عزام هو رئيس وزراء حكومة المجاهدين الأفغان السيد عبد رب الرسول سياف إذ يروي أنه استيقظ قبيل فجر يوم الجمعة الماضي منزعجاً فقد رأى في نومه أنه أصيب في حادثة فقطعت يداه. ويمضي سياف قائلا: «وشعرت بضيق طوال اليوم حتى سمعت بخبر استشهاد الشيخ عزام وأنا في اسلام أباد»....